مقياس نظريات الاتصال الاجتماعي ـــــــــــــــ السنة الأولى ماسترعلم اجتماع الاتصال

المحاضرة الأولى

النظرية الاجتماعية ومفهوم الاتصال

ماذا نعني بالنظرية:

هنا تستخدم كلمة "**نظرية**" بمعناها الحديث الأكثر شيوعًا "**للنموذج العلمي**" أو "**البناء العلمي**". هناك سؤالان عامان وأساسيان للغاية يمكن طرحهما في هذا الصدد هما: ماذا سيكون البحث إذا كان يتألف فقط من أعمال تتوقف على جمع البيانات فقط وليست مبنية على أي نظريات؟ وعلى العكس من. ماذا سيكون البحث إذا كان يتألف فقط من النظريات وليس مبنيا على جمع البيانات؟

يتيح لنا أن ننظر إلى السؤال الثاني أولا. إذا كان البحث يتألف فقط من النظريات، فإنه يفتقر إلى الإشارة إلى العالم الخيالي. لن يكون للباحثين أي صفة للدخول إلى الميدان وإجراء المقابلات مع الأشخاص أو تحليل المصادر. إذا كان البحث مؤلفًا فقط من الإنشاءات في تصورات الباحثين، فسيكون فارغًا من المحتوى؛ وسيكون غير قادر على التحقق من صحتها أو اختبارها بأي شكل من الأشكال. أي قطعة من المضاربة يجب أن تعتبر جيدة مثل غيرها.

لكن الآن دعنا نلقي نظرة على السؤال الأول. إذا كان البحث يتألف فقط من جمع البيانات، فإنه سيفتقر إلى كل الترتيب والحس. إذا كان البحث يتألف فقط من أكوام من المعلومات، فإنه لن يكون أكثر من مجموعة من البيانات الفوضوية، من المستحيل فك تشفيرها أو تقييمها أو تطبيقها على أي غرض ذي معنى. سيكون عديم الفائدة ولا طائل من ورائه.

يمكننا أن نستنتج من هذا أن النظرية مستحيلة من دون "الملاحظة التجريبية، وبالمثل فإن الملاحظة التجريبية مستحيلة بدون نظرية". لإعادة صياغة قول مشهور في عصر " الفلسفة التنويرية للفيلسوف **ايمانويل كانط Immanuel Kant** في القرن الثامن عشر، يمكننا القول أن النظريات بدون الاستعانة بالبيانات الميدانية تعتبر فارغة. ومن جهة أخرى، البيانات الميدانية بدون إستناد نظري تعتبر عمياء، وفي هذا يقول **كانط**: (المفاهيم بدون تصورات فهي فارغة؛ التصورات بدون مفاهيم فهي عمياء).

مفهوم النظرية الاجتماعية: يمكن تعريف النظرية الاجتماعية على أنها دراسة الطرق العلمية للتفكير في الحياة الاجتماعية. فهي تشمل الدراسة العلمية للأفكار حول كيفية تغيُّر المجتمعات وتطورها وتشمل أساليب تفسير السلوك الاجتماعي، السلطة والبنية الاجتماعية، الثورات والطبقية الجنس، والعرق، الحداثة والحضارة،... والعديد من المفاهيم والمشاكل المرتبطة بالحياة الاجتماعية.

يتناول هذا التعريف بعض الأسئلة الرئيسية التي تنشأ عندما نبدأ التفكير في فكرة "**علم المجتمع**" التي نبدأ بها مناقشة معنى كلمة **نظرية** وتأثيراتها المختلفة على **المنهج** في البحث الاجتماعي. وتطرح أيضًا أسئلة حول علاقة النظرية الاجتماعية بـ **الحس المشترك**، ودور **الحقائق، القيم والموضوعية** في البحث الاجتماعي، وحول علاقة علم الاجتماع بالتخصصات

الأخرى في العلوم الانسانية والاجتماعية، مثل السياسية، علم النفس، علم الأنتروبولوجيا، علم الاتصال، التاريخ والفلسفة.

هناك تعريف أخر للنظرية الاجتماعية باعتبارها افتراض أو تخمين يهدف إلى شرح و/أو تحليل الواقع الاجتماعي من منظور سوسيولوجي، وذلك برسم الروابط بين المفاهيم الفردية من أجل تنظيم المعرفة الاجتماعية وإثباتها. ومن ثم، فإن هذه المعرفة تتكون من أطر ومنهجية نظرية معقدة. شرح بعض هذه النظريات الاجتماعية جوانب من العالم الاجتماعي وتُمكّن من التنبؤ بالأحداث المستقبلية، بينما يعمل البعض الآخر منها كمنظورات واسعة توجه المزيد من التحليلات للواقع الاجتماعي.

ما هو البراديغم؟

قدم مؤرخ العلوم **توماس كوهن** (**Thomas Kuhn**) تعريفًا أساسيًا لمعنى البراديغم. فقال: "يستخدم البراديغم لوصف مجموعة من المفاهيم في إطار فرع من فروع المعرفة وفي أي وقت من الأوقات." فهو فلسفة العلم، أو مجموعة من المفاهيم أو أنماط التفكير بما في ذلك النظريات والأبحاث والمعايير للمساهمة في مجال العلوم أو الفلسفة. وعادة ما يكون البراديغم وراء النظريات ما يسمح للعالم بالنظر إلى الوضع والتحقيق في النظرية من كل زاوية. كما يوفر البراديغم النموذج أو النمط للمجتمع الذي يحقق ويستقصي في نظرياته. ويبين ما يجب مراعاته، وكيف ينبغي إجراء الملاحظة ويبدأ النظرية الأساسية. كما يساعد البراديغم على توضيح كيفية إجراء التجارب وما هي أفضل المعدات التي يمكن استخدامها في مختلف الحالات. كما أنه بمثابة دليل لتفسير النتائج.

الفرق بين البراديغم والنظرية: يسير البراديعم والنظرية جنباً إلى جنب لشرح مفاهيم العلوم المختلفة ومساعدة الأكاديميين في عملهم على تحديد طبيعة الظواهر المختلفة. إذ تشرح النظرية الظواهر بناءً على معايير معينة بينما يوفر البراديغم الخلفية أو الإطار الذي يسمح باختبار وقياس النظرية. فالبراديغم يمكن أن يكون له عدد من النظريات في إطاره، ويعمل كنقطة مرجعية لهذه النظريات. فنجد أن هذان المفهومان يعملان مع بعضهما البعض ولكنهما يختلفان. كما يمثلان العمود الفقري للعلوم المختلفة وخاصة منها العلوم الاجتماعية من أجل تفسير نظام الحياة اليومية للأفراد والجماعات ومساعدتهم في فهم معنى بيئتهم التي ينتمون اليها.

ما معنى الاتصال: إن العملية الاتصالية بين البشر عملية أساسية نحس بها ونفهم من خلالها بيئتنا ويتأتى تبعا لذلك ان نكون قادرين على التعامل معها، أي تؤثر فينا او تتأثر بهما، وليس ثمة سبيل الى هذا التأثر الا عن طريق هذه العملية الأساسية (الاتصال، communication)

لقد وضعت عدة مفاهيم للاتصال كل منها يؤكد على جانب او اخر له أهمية في تحقيق عملية الاتصال، ومن تخصص الى اخر تبعا للاهداف التي يسعى العلم الى تحقيقها، غير أن كل المفاهيم تؤكد على أن الاتصال عملية حيوية للإنسان والمجتمع، ويمكن عرض بعض هذه المفاهيم من خلال السياق المعرفي لبعض التخصصات العلمية نورد منها ما يلي:

مفهومه في علم الاجتماع: الاتصال ليس مفهوما حديثا في علم الاجماع، فقد استخدمه علماء الاجتماع الاوائل وخاصة تشارلز كولي وجون ديوي وكانوا يركزون على انه "عملية اجتماعية تنتقل بها الأفكار والمعلومات بين الناس"، كما م تعريفه على انه "عملية تفاعل بين طرفين وضرورة من ضروريات استمرارية الحياة الاجتماعية لتحقيق التكامل الاجتماعي".. يرتكز هذا التعريف على عنصرين هما (تحقيق التفاعل والتكامل الاجتماعي).

في حين هناك تعريف يشتمل على عناصر عديدة توضح عملية الاتصال في اطار الفكر الاجتماعي مفاده أن الاتصال هو عملية اشتراك ومشاركة في المعنى من خلال التفاعل الرمزي تتميز بالانتشار في المكان والزمان فضلا عن استمراريتها وقابليتها للتنبؤ.

مفهومه في علم النفس: يعد علم النفس أحد اهم الراوفد الفكرية التي تعتمد عليها الدراسات الاتصالية، وقد ورد مفهوم الاتصال في الحقل بأنه "عملية نقل انطباع او تاثير من منطقة الى أخرى، ايمن فرد الى اخر او من بيئة الى الفرد وذلك من خلال عدة أساليب جوهرها الكلام واستخدام الحواس التي تُشعر الاخرين بالاهتمام"

كما يؤكد **دفلور Defleur**، في تعريفه للاتصال على انه "عملية عصبية حيوية يتم فيها تسجيل معاني ورموز معينة في ذاكرة الافراد، يتم من خلالها اكتساب معاني ورموز التعليم"

مفهومه في الاعلام والاتصال: يعرف بأنه "يبث الرسائل التي تتسم بالواقعية -الاحداث اليومية- او الخيالية - القصص والروايات- بموضوعات معينة على أعداد كبيرة من الناس مختلفين فيما بينهم في النواحي الاجتماعية، الثقافية، السياسية وحتى الاقتصادية.. ويوجدون في مناطق مختلفة"

قبل التعرض لنظريات الاتصال من الضروري ان نلقي الضوء على الفعل الاتصالي والعلاقة الاتصالية، باعتبار النظريات الاتصالية تهتم بتفسير وتحديد اتجاه الفعل الاتصالي والعلاقات الاتصالية.

وفي هذا يشير **ماكويل McQuail** انه من الصعوبة اختيار نموذج فردي مناسب ليمثل او يصور عملية الاتصال الاجتماعي، وهذه الصعوبة لم تنشأ من الاختلاف على الحقائق، او على مدى اختلاف العناصر التي يجب ان تأخذ في الاعتبار في الفعل الاتصالي، ولكن هذه الصعوبة تنشأ من التنوع الكبير للوقائع والاحداث الاجتماعية، بالإضافة الى المفاهيم والأفكار المتباينة في العلاقة الاتصالية، ولا شك ان الآراء العلمية للظواهر الاجتماعية تعتبر اراء انتقائية، ولذلك فان اختلاف الرؤى او المنظورات التي ينظر من خلالها العالم الى الظواهر والوقائع تؤدي الى اختلاف الكتابات واختلاف الآراء المعرفية التي يتبناها حولها.

وبذلك انقسمت المواقف المعرفية بين الإيجابية والسلبية، وسوف نتبينهما من خلال عرض بعض النظريات والنماذج النظرية الواردة في علم الاجتماع وعلم النفس التي تتعلق بالاتصال.